

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

بِم كَرَّمَ اللهُ الْإِنْسَانَ . ؟ وما الحكم إذا جعل المؤمن
من غايته مجاهدة نفسه . ؟

إخوانى الأعزاء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته التى وسعت كل شىء . وأحاطت بكل شىء . وشملت كل شىء ؛ فكانت لنا الحياة التى نحبها ونحرص عليها حرص الدواب والحيوانات شركائنا فيها — سواء بسواء — ولكن الله تبارك وتعالى ميزنا بالعقل . وفضلنا بالإدراك ، وأكرمنا بالإيمان والعلم فقال عز وجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ الأمر الذى يقتضينا أن ننظر إلى هذه الحياة المشتركة بعين الوسيلة إلى حياة أعلى وأفضل من هذه الحياة التى نحبها فى الدنيا بصورة تختلف تماما عن حياة شركائنا فيها كما هو شأننا فى الاختلاف الكبير الذى بيننا وبينهم فى الممارسة لها وبها باعتبارها وسيلة لا غاية . فإن المشاركة بيننا وبينهم خاصة ببعض الغرائز الوجودية التى لا بد منها لكل موجود فى الدنيا سواء أكان إنساناً أم حيواناً . ولما كان وعد الله حقاً لا مفر منه ، ولا محيص عنه حيث لا تبديل لخلق الله ولا لسننه : فقد خلق الله الدنيا والآخرة كما هو الشأن فى خلق كل شىء من زوجين والذى يهمنى الآن معرفة موقفنا من الدنيا والآخرة .

أكرمنا الله بالإيمان به وبرسوله واليوم الآخر . وذوقنا طعم الحياة فى الدنيا لنذكر طعم الحياة فى الآخرة التى لا بد منها ولا محيص عنها ثم علمنا ماهية الحياة فى الآخرة كيفاً وكما فحجب إلينا الحياة الدنيا بصورة لا يمكن الفكاك عنها ، ولا التخلص منها ؛ لأنها ليست كسبية . إنما هى غريزية يقابلها كراهية الإنسان للموت وفراهِ منه . كما هو شأن الأحياء جميعاً . ولما كانت هناك حياة أخرى لها صفة الحياة فى

الدنيا أنزل الله الكتب وأرسل الرسل ليدعو الناس إلى تلك الحياة الأبدية التى يؤكد حصولها ووقوعها . وأكد انقطاع هذه الحياة الدنيا وذلك أمر مشهود لنا لا يمكن تجاهله ولا إنكاره . قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ ﴾ .

ولما كان للإنسان طبيعته الغالبة بحكم بشريته التى خلقه الله عليها وبها . الأمر الذى يشده إلى إثارة هذه الحياة التى يحياها فى الدنيا خلق الله الجنة ودعاه إليها لئلا يكون له حجة . فله الحجة البالغة ثم عرض عليه ما فى الجنة من متاع وسعادة . وزكاه ترغيبا له فى السعى إليها والعمل لأجلها . وهذا العرض متفق تماما مع غرائزه وشهواته التى يعيش بها فى الدنيا . ولما يعلم الله من حقيقة هذا الإنسان فى تعلقه بالحياة الدنيا بحكم بشريته قال : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ وهم الذين لا يريدون علوا فى الحياة الدنيا بمعنى الإثارة لها تبعا للغرائز والشهوات بل يسمون بأهوائهم ويعلمون بها تبعا لأمر الله وقضائه فإن قوله تعالى : ﴿ لَا يُرِيدُونَ ﴾ يفيد أن المؤمن رغم ممارسته للحياة الدنيوية كسائر الناس شركائه فيها يفترق عنهم بنيتة وإراداته التى يبتغى بها وجه الله والدار الآخرة على ضوء شريعة الله وسنة رسوله ﷺ . وقال سبحانه وتعالى فى آية أخرى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ هي حياة العبودية لله فى تصرفاته وجميع أحواله : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ الذى خلقك لطاعته وعبادته إيمانا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ كما هو شأن الذين لا يؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة . والأشكال الأخرى من الحيوانات والدواب التى تعيش فى الأرض وقال تحذيرا فى هذا ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ .

ولما كان للإنسان صفاته البشرية وغرائزه الحيوانية التى يصعب عليه التخلص منها مهما بلغ من إيمان وجهده وعده الله بالعون إذا اتجه إليه بالطاعة والعبادة كما

وعده بمضاعفة حسناته ، والله يضاعف بفضلته لمن يشاء على قدر صدقه وإخلاصه في توجهه إلى ربه سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وبهذا نعلم أن الإنسان — من حيث هو إنسان — لا يمكن أن يبلغ مراد الله منه إلا بفضل الله ورحمته وتوفيقه وإعانتته لأن أعداءه أشد منه بأساً وأشد قوة وشكيمة أى : النفس ، والشيطان ، والدنيا ، والهوى . فهم أربعة وهو واحد . ولذلك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أى طريق الخلاص من هؤلاء الأعداء وطريق التخلص من الطبائع البشرية اللازمة للحياة الدنيا . إن الله مع المحسنين : وهم الذين جاهدوا فينا . وقد ذكر الله كلمة « فينا » لتعلم أن المقصود من الجهاد معية الحق لا معية الباطل (النفس والشيطان) ، وقد علمت إخواني : أن الاشتغال بأمر النفس فساد وضلال ؛ حيث المطلوب الاشتغال بأمر الحق . كما علمت أن من يريد العلو في الدنيا لابد له من مجاهدة النفس حتى يحقق ما يريد . ومثل هذه المجاهدة لا تقربه إلى الله لأنها من رغبات النفس ومن دواعيها . فإن المؤمن الحق لا يرحل من كون إلى كون ، ولكن يرحل من الكون (النفس) إلى المكون ؛ لئلا يكون كحمار الرحى الذى يدور حول محور واحد . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

إخواني : لقد أمرنا الله بطاعته وعبادته ، ثم ذكر لنا في كتابه وبين لنا على لسان رسوله ﷺ المطلوب منا كيفاً وكماً ، ثم ذكر لنا أوصافنا البشرية وصفاتنا الإنسانية التى نحن عليها في الحياة الدنيا تنبيها وتحذيراً ، ثم ذكر لنا العدو بصفاته وأعماله ، وملازمته لنا مدى الحياة ، وحذرنا من طاعته وعبادته ثم وعدنا بالرعاية إذا رجعنا إليه سبحانه بالدعاء والافتقار ، والتوبة والاستغفار . ولم يكلفنا أبداً بالدخول في نضال وحرب ومعركة لأنه غير مرئى لنا إلا بوسوسته واعتراضاته ، وإضلاله وإغوائه إيداناً بأنه لا يملك أكثر من ذلك . فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأمر الذى يؤكد لنا هوانه وضعفه وقلة جليلته بالنسبة للنفس . فإنه لم يصف إليها ما أضفى إليه لأنها مطيتنا إليه والدار الآخرة . ولكن رسول الله ﷺ حذرنا من النفس بقوله عليه الصلاة والسلام : « إن أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » أو كما قال ، ولما كان لاغنى للإنسان عن نفسه في الدنيا والآخرة لم يذكرها الله في كتابه بعداوة

مماثلة لعداوة الشيطان الذى قال عنه : ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ إنما قال بعد وصفها بالفجور : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ لأن الشيطان من الممكن أن نتخلى عنه . لكن النفس هى الحياة ، وهى مدار التكليف ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فمن قضى عليها بالجهاد فى سبيل الله كان شهيدا فى الدنيا والآخرة . ومن هنا نعلم يقينا أن المطلوب منا امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، وإذا حصل ذلك للمؤمن برغبة صادقة وعزيمة جادة فإن الشيطان يخنس . وحينئذ تتصالح النفس مع صاحبها وتصبح منقادة ذليلة خاشعة . قال تعالى فى بيان هذا : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَخْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

وقد علمت إخوانى : أن الاشتغال بالنفس انحراف وبطالة ، وزيف وضلالة حيث المطلوب معرفتها والحذر منها . وعدم الاطمئنان إليها مهما بلغت من الشأن فى هذه الحياة . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ لقد بين الله بهذه الآيات الكريمة مسلك النفس وطريقها إلى الدارين فمن تركها وشأنها أثرت العاجلة عن الآجلة ؛ وسبب هذا الإلثار : عدم الإيمان ، أو ضعفه ، أو غفلة الإنسان المؤمن . وقد وصف الله فاعل هذا بالطغيان كما وضحت الآيات . ومن خلال الآيات الكريمة يدرك المؤمن أن حاجة الإنسان إلى الحياة الدنيا قائمة ومتصلة لاغنى لنا عنها ولا مفر منها فهى مطلوبة بأمر الله قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ فمن أخذها بحظه وهواه دون التزام بشريعة الله وإذنه أخذ وصف الكافر الذى لا يؤمن باليوم الآخر ولو كان مؤمنا أو مسلما ولذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ لأن الطغيان نتيجة الانطلاق الذاتى من جانب الإنسان دون التقيد بشرع ولا ارتباط بدين . ولما كان الطغيان من جانب النفس أمرا خفيا لا يعلمه إلا الله ذكر آثاره فى حياة الإنسان بقوله : ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ ﴾ بأقواله وأعماله وأحواله . ثم ذكر بعد ذلك

مصيره فى الدنيا بعمله وفى الآخرة بالجزاء فقال : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا *
لِلطَّاغِينَ مَابًا * لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا
خَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وَفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ ثم بين بعد
هذا مصير المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ... ﴾ إلخ
وهؤلاء أخذوا نصيبهم من الدنيا . بمنطلق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر .
ولذلك وصفهم الله بالتقوى لأنهم أخذوا بالأساليب الشرعية فى تكييف الحياة
الدنيا التى يشترك فيها الناس جميعا . وهم الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ بحكم إيمانه به وإيمانه بأسمائه وصفاته ، ووعده ووعيده الأمر
الذى يترتب عليه سلوك معين فى الحياة الدنيا فكان بمثابة نهى النفس عن هواها فى
مباشرة الحياة التى عليها مدار التكليف لأن من خاف مقام ربّه توجه إليه بمحابه
ومراقبته ومن كان هذا شأنه فلا يعبأ بنفسه ، ولا يشعر بوجودها . إنما يأخذ
طريقه قدما إلى الله والدار الآخرة قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *
أَرْجِعْنِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً * فَأَدْخِلْنِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخِلْنِي جَنَّاتِي ﴾
ومن هنا نعلم أن معنى نهى النفس عن الهوى مقصود به الانتظام على الصراط
المستقيم سلوكا وعملا . فمن فعل هذا فقد نهى النفس عن الهوى أى سد عليها
الأبواب والطرق التى توصلها إلى الفساد فلا مجال لها ولا فراغ لدخول الشيطان
عليها أو الوصول إليها ؛ لأنها اشتغلت بالحق فلا طريق للباطل ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقًا ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ .
وإلى لقاء آخر أستودعكم الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
